

## تجربة سورية الرائدة في تعريب العلوم في التعليم العالي

الدكتور عبدالله واثق شهيد

نشأ تعريب التعليم في بلاد الشام مع حركة النهضة القومية والإحياء اللغوي في القرن التاسع عشر. ويمكن العودة ببدايات النهضة إلى عهد الأمير بشير الشهابي<sup>(١)</sup> (١٧٨٩-١٨٤٠) الذي جعل قصره منتدى ازدحم فيه الكتاب والشعراء.. ونشأ فيه رواد النهضة الأوائل كناصيف اليازجي ونقولا الترك وبطرس كرامة...

وكثر الرواد في مطلع القرن التاسع عشر، وتعددت مشارب الإحياء اللغوي، إلا أنها يمكن أن تصنف في مدرستين رئيسيتين، مدرسة شبتت في الجامعين الأمويين في دمشق وحلب، وعمل روادها بالتدريس فيهما، على إحياء القديم في خط تقليدي، وأخرى أصاب روادها نصيباً من الثقافة الغربية، فأدخلت أفكاراً جديدة إلى بلاد الشام في وقت مبكر، وكان الشدياق رأس هذه المدرسة التي يمكن أن نطلق عليها بحق اسم مدرسة الآباء

---

(١) حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام: نشأة طيبان - دار التقدم، دمشق ١٩٧٦،

الصفحتان ٢٦٩-٢٧٠.

اليسوعيين<sup>(١)</sup>. كما يعيد أعلام تعريب العلوم في الشام جذور نهضة تعريب

تعليم العلوم إلى أوائل القرن التاسع عشر<sup>(٢)</sup> أيضًا.

ومن العوامل التي هيأت لهذه النهضة دفعًا قويًا صدور الدستور العثماني في عام ١٨٧٠، وفيه دعوة واضحة إلى التتريك وطمس عروبة الولايات العربية، وتلاه دستور عام ١٩٠٨ تأكيدًا له ودعمًا. وقامت جمعية الاتحاد والترقي بالإشراف على تطبيقهما بحزم، فساعدت بذلك على تجسيد فكرة البعث القومي، وبلورتها الروح الطورانية التي انبثت في نصوص الدستورين. وتجاوبت المدارس الأجنبية في البداية مع هذا المد القومي، فعلمت باللغة العربية خدمةً لأهدافها في توهين السلطة العثمانية وإضعاف نفوذها وتزيين افتتان طلابها بثقافة بلدانها<sup>(٣)</sup>، وحظيت المدرسة الإنجليزية (الكلية الأمريكية) بمعلم العربية الشيخ ناصيف اليازجي كما حظيت بثلاثة أطباء أجانب درسوا اللغة العربية وأتقنوها ثم صنعوا لفنونهم المؤلفات العربية وعنوا العناية البالغة بتحري الكلمات العربية لمصطلحات فنونهم، وتخرج على أيديهم الرعيل الأول لنشر العربية في الجبل والساحل فكانوا الدعامة الأولى للتعليم العالي العربي في ديار الشام.

(٢) المرجع السابق الصفحة ٢٧١.

(١) طرائق نقل المصطلحات العلمية إلى اللغة العربية: الأمير مصطفى الشهابي - مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد العاشر، الصفحة ٢١١.

(٢) حاضر اللغة العربية في بلاد الشام: سعيد الأفغاني - معهد الدراسات العربية العالية (جامعة الدول العربية) - القاهرة ١٩٦٢ الصفحتان ١٧-١٨.

وازدادت حركة الإحياء اللغوي قوة وتحفزًا بظهور فئة استهدفت شق صفوف الحركة وزعزعة كيائها فدعت إلى تبني اللهجة العامية، وصدرت كتب بها لمارون عبود وشكري الخوري وغيرهما، وطور بعضهم هذه الدعوة ووسعها لتشمل استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، فاستحثت هذه البدعة الوعي القومي. وأدركت المدارس الأجنبية أنها خسرت الرهان فبذلت الجامعة الأمريكية التعليم باللغة العربية في عام ١٨٨٠ بادعاء قصورها عن استيعاب منجزات العصر العلمية، فأثارت المزيد من النقمة في النفوس التي وطدت عزمها على تعزيز حركة الإحياء اللغوي، وأسست الجمعيات لتحقيق هذا الهدف بإنشاء المدارس الأهلية والنوادي. وحققت الجمعية<sup>(١)</sup> الخيرية التي أسست في دمشق نهضة تعليمية باللغة العربية في أيام الوالي المصلح مدحت باشا، فأنشأت بين عامي ١٨٩٤ و١٨٩٥ ثماني مدارس للذكور ومدرستين للإناث في دمشق، وعين مدحت باشا الشيخ طاهر الجزائري مفتشًا عامًا للمدارس في ولاية سورية التي كانت بيروت وملحقاتها تابعة لها. وساهم خريجوا المدارس الأهلية الخاصة الإعدادية والثانوية بنصيبٍ وافرٍ في إثراء الثقافة ونشر اللغة العربية. ورجع من ذهب منهم للتخصص في أوروبا<sup>(٢)</sup> «على المبادئ الطبية المغروسة فيهم في تلك المدارس، فلما وكل إلى بعضهم التدريس في الجامعة الناشئة أيام الحكم العربي، أنفوا كل الأنفة من أن يدرسوا بفرنسية أو إنكليزية وأخذوا على عواتقهم رد الاعتبار إلى اللغة العربية التي نهضت من

(١) المرجع السابق الصفحتان ٥٥ و ٦٥.

(٢) المرجع السابق، الصفحة ٣٠.

تحت الأنقاض. فدأبوا ليل نهار حتى قدموا أحسن الخدمات إلى التعليم العالي وهي تعريبه على الأسس الراسخة السليمة».

ولقد طالبت جميع الجمعيات والمدارس والنوادي بتعريب التعليم وبحض من الإدارة المستقلة للبلاد العربية، وتوجت هذه المساعي كلها بمؤتمر باريس الذي عقد في صيف عام ١٩١٣ وكان من أهم مقرراته: «اعتبار اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية». وقامت في الشام (في دمشق وبيروت) مظاهرات شعبية عنيفة اقتترنت بإضرابات واسعة النطاق دعمًا لهذا القرار وابتهاجًا به، فاضطرت الحكومة آخر الأمر - سنة ١٩١٣ إلى مفاوضة زعماء الحركة الإصلاحية، واتفق على كيفية تنفيذ الإرادة السنوية التي صدرت في هذا العام والآتي نصها:

«يكون التدريس باللغة العربية في جميع مدارس الولايات التي يتكلم أكثرية سكانها هذه اللغة، في المدارس الابتدائية والإعدادية، وينظر من الآن في الوسائل التي تؤدي إلى جعل التعليم العالي في البلاد باللغة العربية». «وفي سنة ١٩١٢ أنشئ معهد الحقوق<sup>(١)</sup>... وكانت دروس المجلة وأصول الفقه وأحكام الأوقاف وغيرها من العلوم الفقهية تلقى فيه باللغة العربية...». وهكذا فإن

(١) جاء في خطاب الأستاذ سعيد الغزي في حفلة توزيع الشهادات (ينظر، مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد الثامن، الصفحات ٥٢ - ٥٨) ما يلي: «أذاعت الحكومة العثمانية بلاغًا جاء في مواده أن تكون اللغة العربية لغة التدريس في المدارس الابتدائية والثانوية ولغة المرافعات في المحاكم النظامية والشرعية في البلاد العربية، وأن تعنى الحكومة بإنشاء مدارس عالية للطب والحقوق في البلاد العربية، وفي سنة ١٩١٢ أنشئ معهد الحقوق...».

فعرّفب ففعلفم الفقوق، قء بءأ فف سورفة قبل الفرب العالمفة الأولى، ونشأ بمفاهفمه ومصطلحاته فف بفة عربفة إسلامفة ففطور ففها فءرفبفبفًا، ففكاملف المفاهفم الفءفءة ومصطلحاتها فف مءرسة فلك البفة بفسر. كانت هءة بءافة فعرّفب الففعلفم العالف رسمفبًا فف سورفة، وكان فعرّفب العلموف الإنسانفة، ومنها الآءاب ببخاصة، مبكّرًا أفضا، كما فمكن أن فكون قء افضح من عرضنا الملخص لفركة الإءفاء اللغوف فف بلاءنا. فقء قامت الفركة الأءبفة والفثقافة عامة فف أفصقاع المشرق العربف بنقل روائع الأءب الغربف إلى اللغة العربفة فف وقت أبكر، لهذا كله ففإن فعرّفب الففعلفم العالف فف مففلفل مبالاا العلموف الإنسانفة لم فكن قفضفة معقءة ولم ففثر أبءًا إشكالاا ففضارب حولها الآراء.

وفذكر الءكفور جمفل الفانف<sup>(١)</sup>، أنه شرع فءرّس العلموف الطبفعفة والرفاضفة باللغة العربفة قفبل الفرب العالمية الأولى، فء فقول فف ءراسة له عن المصطلحات العلمفة، نشرت عام ١٩٣٤: «منء شرعت فءرفس العلموف الطبفعفة والرفاضفة فف المءراس العربفة بءمشق، أف منء عشرين عامًا، كنت أرفب أن آخذ هءة العلموف عن الكفب الغربفة، فء لا مشااة فف أن بلاد الغرب هف منبع هءة العلموف فف هءا العصر، لكنفف كنت ألافف فف سبفل الوصول إلى غاففف عقباء ففة فف فرفمة المصطلحات الأعجمفة إلى اللغة العربفة». وهءا فعن فف أن بلاغ الفكومة العفثمانفة الءف جاء ففه أن فكون اللغة العربفة لغة الفءرفس فف المءراس الاءباءفة والفانوفة قء فطبقت فف فمفع المبالاا، وأن الففرفب قء بءأ رسمفبًا منء ذلك الففن.

(١) الأستاذ الءكفور جمفل الفانف: مصطلحات علمفة - مباله المعهء الطبف العربف، المباله

وواقع الأمر فإن تعريب التعليم عامةً، وتعريب تعليم العلوم في المراحل المختلفة، ومنها مرحلة التعليم العالي خاصة، لم يطرح هو أيضًا إشكالات ولم تختلف حوله الآراء.

كان تعريب التعليم في جميع مراحلها مطلبًا جماهيريًا منذ بدايات النهضة العربية الحديثة وحركة الإحياء اللغوي التي رافقتها كما بينا. وكان الدافع لتبني جميع أبناء الوطن التعليم باللغة العربية، في جميع مراحلها، هو حب الوطن والثقة بالنفس، الثقة بقدرتنا على إثبات وجودنا أمام العالم كله وبكفاءتنا لنهوض من الكيوة. والتمسك باللغة تعبير عن التمسك بالوطن والتاريخ. إنه العامل النفسي كما يقول الدكتور عبد السلام العجيلي<sup>(١)</sup>: «هذا العامل موجود وراسخ في أعماق نفوسنا... هذا التعلق العاطفي باللغة الأم، في مجموعة بشرية هو دلالة من دلالات ثقة هذه المجموعة بنفسها، كما هو نقطة ارتكاز لا بد منها لكي تنتج هذه المجموعة إنتاجًا حضاريًا ذا قيمة أصيلة». هذا العامل النفسي هو الذي يدفع كل شعب من شعوب العالم للاعتزاز بلغته، وللتعليم بها في جميع مراحل التعليم مهما كان تعداد سكانه، قلّ أو كثر، إنها هويته أو أبرز ما فيها. ولكم توارت في خضم التطورات الحضارية والثقافية التي نشهدها في هذا العصر، لغات لم تشارك في بناء حضارته، ولم يكن لها من قبل مشاركة مشهودة في هذا المضمار. لقد اندثرت في هذا الخضم مئات اللغات في القرن الماضي، بينما أحييت عدوتنا إسرائيل اللغة العبرية بعد موتها وجعلتها نقطة الارتكاز، التي أشار إليها الدكتور العجيلي، لوجودها العدواني

(١) عبد السلام العجيلي: لغة العلوم الحلقة الرابعة - مجلة المعرفة، الصفحات ٦-٣٣

وبخاصة الصفحات ١٨-٢٢ منها.

ولغة التعليم في جميع مراحلها. أما لغتنا العربية فلها من القرآن الكريم حرز، ومن الحضارة العربية الإسلامية ركن شديد، ولها في نفس كل عربي وكل مسلم قدسية أضفاها عليها القرآن الكريم والدين الإسلامي الحنيف، وما هو محمد كرد علي، مؤسس مجمع اللغة العربية بدمشق المتحدّر من أصول كردية شركسية قد اعترز بلغة القرآن الكريم لساناً وفاخر بحمل لواء العروبة وحب وطنها الكبير. واللغة العربية هي التي أبدعت مصطلحات علوم الحضارة العربية الإسلامية وكانت في تلك الحضارة لغة العلم والثقافة، وانتشرت بها في أصقاع العالم كله فأنارت ظلمات العصور الوسطى ومهدت لعصر التنوير، وإنها قمينة بالعلم والحضارة وبالمساهمة في بنائهما وتطويرهما.

لقد رافق قيام الدولة العربية في سورية شعور بالعزة والقوة والكرامة، استبد بأفئدة جميع فئات الأمة، فاندفع الجميع، معلمون وصحافيون وكتاب وشعراء وموظفون وسياسيون مثقفون، للقضاء على ما خلف التتريك من آثار مهينة امتدت إلى اللغة والثقافة.

لقد كان إذن خيار تعريب التعليم في جميع مراحلها هو الخيار الوحيد الذي توجه إليه المثقفون في سورية، بل الشعب كله. واتسق قرار الدولة العربية الفتيّة مع هذا الخيار، فكان هو أيضاً خيارها الوحيد. إنه نفي عام كان على الدولة توجيهه والوصول به إلى الغاية المرجوة بأنجع السبل وأقصر مدة. فأنشئت شعبة للتأليف عَقِبَ تأليف الدولة العربية في عام ١٩١٨، مهمتها النظر في المصطلحات التركية، التي كانت سياسة التتريك قد أدّت إلى تفشي استخدامها في دوائر الدولة، وترجمتها إلى مصطلحات عربية. واستُعين لأجل

تحقيق هذه الفكرة بعدد من الأدباء والشعراء ورجال السياسة المثقفين... وكلفت الحكومة هؤلاء العلماء الأعلام تدريس الموظفين اللغة العربية والإنشاء<sup>(١)</sup>. وفي عام ١٩١٩ أسست الحكومة «ديوان المعارف» برئاسة الأستاذ محمد كرد علي، صاحب جريدة المقتبس، وكانت مهمة هذا الديوان النظر في أمور المعارف وتأسيس دار للآثار والعناية بالمكتبات، ودار الكتب الظاهرية منها خاصة. ولما اتسعت أعمال هذا الديوان، أسست الدولة «المجمع العلمي العربي» في ١٩١٩/٦/٨، وعهد برئاسته إلى العلامة محمد كرد علي، وكان أعضاؤه العاملون والشرفيون هم الذين شاركوا في شعبة التأليف وترجمة المصطلحات وفي ديوان المعارف.

كانت أعباء المجمع مرهقة، وكان أهمها: البحث في الألفاظ المتداولة في أكثر دوائر الحكومة، وتقرير الفصيح منها اعتماداً على أمهات كتب التراث، وتعهد آثار البلاد بالعناية والرعاية، وجمع ما يتوافر له منها لتكون نواة «لدار الآثار العربية»، وإنشاء مجلة باسم «المجمع العلمي العربي» وإنشاء «دار للكتب العربية» تكون دار الكتب الظاهرية التي نيط بالمجمع إدارتها، نواة لها، واتخذ المجمع لذلك المدرسة العادلية التي تقع قبالة الظاهرية مقرّاً له. كل شيء عربي وليس سوريّاً، إنه الاعتزاز بالعربية والإيمان بالعروبة: المجمع العلمي العربي، ودار الكتب العربية، ودار الآثار العربية. ولقد اضطرت الدولة الفتية، في ظل الظروف الاقتصادية الصعبة التي رافقت قيامها، إلى توقيف أعمال المجمع توقيفاً مؤقتاً وأبقت من أعضائه عضوين فقط لكي يشرفا على أعماله

(١) أحمد الجندي: المجمع العلمي العربي - مجلة المعرفة، السنة الرابعة، العدد ٤٢،

ومحتوياته فلا تغتالها أيدي الضياع<sup>(١)</sup>. وفي سنة ١٩٢١، وهي السنة التي أصدر فيها المجمع مجلته، كان عدد أعضائه العاملين أربعة يؤازرهم عدد من الأعضاء الشرفيين. وكان مما قام به في تلك السنة:

- إصلاح الكتب المدرسية في المدارس المدنية والعسكرية بعد أن قرر مجلس المعارف الكبير في ١٧ أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢١ إحالتها على المجمع ليصحح أسلوب إنشائها، ويضع المصطلحات العلمية العربية أو يحققها.

- إصلاح لغة الكتاب، فكان ينشر على صفحات مجلته وغيرها من الصحف مقالات في باب سُمي «عثرات الأفلام» وأخرى عنوانها «في الوضع والتعريب»، وأذاع نشرة يطلب فيها من دوائر الحكومة ومعاهد التدريس أن تبنيته بما تحتاج إليه من الألفاظ وضعاً وتعريباً<sup>(٢)</sup>.

- وأخذت تنهال عليه رغبات دوائر الدولة كلها - المعارف والأوقاف والشرطة وغيرها - في أن ينظر في كلمات وتعابير كثيرة، فنظر فيها بعناية وقدمها بتواضع شديد، ولم يشأ فرض منجزاته على الناس المتلهفين لالتقاطها، لعل بعضهم يقترح ما هو أصح، ذلك لأن الأصلح كان هو الغاية. لقد كانت توجهات المجمع في سنواته الأولى إصلاح لغة الدواوين والكتب والصحف ووضع المصطلحات الأكثر تداولاً وإلحاحاً، وجلها يقع في مجال ألفاظ الحضارة والحياة العامة.

(1) عبد القادر المغربي: نشأة المجمع العلمي العربي - مجلة المجمع، المجلد ١، الصفحة ٥.

(2) عبد القادر المغربي: خلاصة عن مجمعنا وأعماله في هذه السنة - مجلة المجمع،

لقد نجح المجمع في العاجل من مهمته، فعزّب الدواوين وأصلح لغة التعليم في المدارس والصحافة في مدة قصيرة نسبياً، والتف حوله كل فئات الشعب وأنصار العربية في البلاد الإسلامية عامة وفي الأقطار العربية كلها خاصة. وامتألت صفحات مجلته بأرائهم ودراساتهم في المشكلات التي كانت تعرض على صفحاتها أيضاً.

كان أعضاء المجمع الأوائل العاملون والشرفيون، لغويين في المقام الأول، وكان معظم المشكلات المطروحة في البداية، إصلاح لغة الكتاب والدواوين ووضع المصطلحات الأكثر تداولاً وإلحاحاً، وهي كما ذكرنا مصطلحات ألفاظ الحضارة والحياة العامة. أما مصطلحات العلوم الأساسية والتطبيقية في الفيزياء والكيمياء والطب والصيدلة، فكان على الاختصاصيين في المعهد الطبي العربي القيام بوضعها والتدقيق فيها، إذ لا يجوز إلقاء أعباء هذه المهمة على لغويي المجمع، أعضائه العاملين والشرفيين، وتلقف ما يقترحونه عليهم من المصطلحات والركون إليها. فعلى الرغم من الجهود المضنية التي قام بها أولئك العلماء اللغويون في البحث في كتب التراث لاختيار ما يعتقدون أنه الأفضل، فإن مصطلحات كتب التراث وضعت لمعانٍ علميةٍ حددت في حينها وليس بإمكان غير الاختصاصيين في العلم الأساسي أو التطبيقي المعني استعارتها لمعانٍ علميةٍ أخرى. ويبقى الاحتكام إلى اللغويين في المصطلحات والتعابير في كثير من المشكلات ضرورياً. وقد تبّه إلى هذه الحقيقة من قبل، وبصور مختلفة، كل من مرشد خاطر ومصطفى

الشهابي ومنيف العائدي على الأقل<sup>(١)</sup>.

يعدّ ما قام به أعضاء هيئة التدريس في المعهد الطبي العربي من أروع إنجازات مراحل تعريب التعليم العالي في القرن العشرين، إنه يشبه من وجوه عدة ما قام به أسلافهم في القرن التاسع عشر في مصر والشام. لم يتردد أي من أعضاء هيئة التدريس في المعهد الطبي العربي في متابعة مسيرة تعريب تعليم الطب وما يرافقه من الصيدلة والعلوم الحيوية والكيمياء والفيزياء، بل لم يساور التردد أحدًا منهم. إنه النفي العام كما ذكرنا قبل قليل، وهم معنيون به ومن صانعيه كما يستخلص مما أوردناه في الصفحات السابقة من هذه الدراسة.

لقد كانت مهام أساتذة المعهد الطبي العربي عظيمة الشأن ومرهقة، وكان النجاح فيها هو خيارهم الوحيد. واخترت على سبيل المثال، لتقدّم صورة عن جسامّة التحدي الذي يطرحه النجاح فيها، ما تصدى له الطبيب محمد جميل الخاني، أستاذ أمراض الجلد ومدرس العلوم الطبيعية في المعهد. وقد اخترته من بين زملائه، لأنه كان يعدّ محاضراته في اختصاصين، في أمراض الجلد وفي الفيزياء، والبعد بينهما شاسع، فهو يبحث في الحديد في الاختصاصين، ويضع المصطلحات العلمية لما يدرّسه، ويعمل على تقويم ما اعوج من أساليب اللغة العلمية، ويعرض ما يرتئيه على صفحات مجلتي المعهد وجمع اللغة العربية (مجلة المجمع العلمي العربي سابقًا)، على الأطباء واللغويين لنقده أو الأخذ به. حقًا يستحق المرء على نجاحه في أداء هذه الأعمال التي تتطلب استقصاء المعارف في الاختصاصين وإجادة تعليمهما معرّين، أعلى

(1) نبه إليها مصطفى الشهابي في الصفحتين ١٢٧ و ٢١١ من المجلد العاشر من مجلة المعهد

الطبي العربي ومرشد خاطر في الصفحة ١١٧ منه، والعائدي في الصفحة ١٨١ منه.

درجات التقدير. يقول الأستاذ الخاني في الحلقة الأولى من سلسلة مقالاته «اللغة العلمية»<sup>(١)</sup>: «...» ولذلك أحببنا أن نبيّن للقراء هذه الأغلط ليشاركونا في الانتباه إلى ما انطبع في أدمغتنا من الكلمات غير الصحيحة ونستبدل بها صحيحها خدمة للعلم واللغة وسنوالي مقالاتنا في هذا الموضوع تحت عنوان (اللغة العلمية)... ولا نقصد بذلك أن نختص بهذا الباب دون غيرنا، بل إنه باب مفتوح لكل من يطرقه، ونسدي أطيب الشكر لكل من يؤازرنا في هذا المشروع من إخواننا الأطباء وغيرهم، ألهمنا المولى إلى ما فيه نفع العلوم وإعلاء شأن لغتنا المحبوبة...». وارتأى في مقالته الأولى هذه، ضرورة تغيير عدد من المصطلحات، كان من بينها: الأوعية الدموية، والنفاء، والأوعية الشعرية... فقال: «... ومنها قولهم أوعية شعرية، اسماً للعروق الصغار وهو اسم خطأ فادح... على أن العرب سمت هذه المجاري بالعروق الدقاق، فيجب استعمال هذا اللفظ الصحيح وترك ذلك اللفظ الذي ليس من العربية في شيء». وكان الأب أنستاس ماري الكرملي في بغداد، مستنفرًا لنصرة التعريب كغيره من العرب، يتابع ما ينشر في مجلتي المجمع والمعهد حول مسيرة التعريب في دمشق، وينشر فيهما ما يراه دعمًا لها. فكتب إلى مجلة المعهد مشجعًا، ومعلقًا على ما نشر فيها، مقالةً بعنوان: «محاسن مجلة المعهد الطبي العربي»<sup>(٢)</sup>، جاء فيها، تعليقًا على مقالة الأستاذ الخاني، نقد مصطلحاته والاعتراض على استخدامه

(1) محمد جميل الخاني: اللغة العلمية - مجلة المعهد الطبي العربي - المجلد الأول (١٩٢٤) الصفحة ٦٠.

(2) الأب أنستاس ماري الكرملي: محاسن مجلة المعهد الطبي العربي - مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد الأول، الصفحات ٤٢٦-٤٣١.

فيها حروف: على، وعن، واللام في له، وعند، في غير المواضع الصحيحة في رأيه، واستشهد بالقزويني في كتابه عجائب المخلوقات، على صحة استخدام مصطلح الأوعية الشعرية... فرد الخاني في العدد التالي من المجلة، بعنوان «رد انتقاد»<sup>(١)</sup> وبرز استخدامه «عند» للزمان في المواضع التي استخدمها فيها مستشهداً بالنووي والدماميني، ورفض استشهد الأب الكرمللي بالقزويني المتأخر قائلاً: فهل القزويني عربي يتخذ كلامه حجة في اللغة؟ ...

لقد سقتُ بعض ما جرى بين الخاني والكرمللي لتصوير واقع تفاعل المجتمع العلمي في المشرق العربي في بداية مسيرة التعريب. وكان ما سقته طرفاً من صورة أشمل لواقع ذلك التفاعل، اخترته لبيان المستوى الرفيع من المعارف اللغوية والعلمية الذي كان يتوفر في عضو هيئة التدريس في التعليم العالي:

- ١- في اللغة (أو اللغات) الأجنبية التي يستقي منها علومه.
  - ٢- وفي اختصاصه العلمي وهو محور مهمته التعليمية، والذي لا يُجسّن دون إجادته، انتقاء ما ينقل والتمكن من فهمه.
  - ٣- وفي اللغة العربية التي يصوغ بها أفكاره العلمية، وينتقي من ذخيرتها الواسعة وزمر معانيها المتقاربة والمترادفة، مصطلحاته العلمية.
- ولا يبلغ عضو هيئة التدريس في المعهد الطبي هذا الشأن في اللغة العربية، إلا إذا أنفق من عمره سنوات في دراستها فأحب صحبتها. وهذا شرط رابع يجب توفره في الرواد من أعضاء هيئة التدريس للنجاح في هذه المهمة الريادية. وهل كان بإمكان الخاني رد انتقاد الكرمللي بتلك السرعة لو لم يكن

---

(1) الدكتور جميل الخاني: رد انتقاد - مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد الأول، الصفحات

قد بلغ ذلك الشأن في اللغة العربية فيستشهد في استخدام (عند) للزمان، بتحريك النوي في قوله عند الليل، وفي قول الدماميني: عند الصدمة الأولى. قلت لقد سقت طرفاً مما جرى بين الخاني والكرملي، والواقع أنّ ما كان بينهما من نقاش، امتد ليشمل: العروق والأوعية الدموية، والعروق الدقاق والأوعية الشعرية، والبلغم والنفقة أو اللنفا... ولم يكن الأب الكرملي الوحيد الذي تناول مصطلحات الخاني بالنقد، فقد تناولها أيضاً الدكتور أمين المعلوف مدير الأمور الطبيّة في الجيش العراقي، وبعض زملائه في المعهد. كما لم يكن الخاني وحده موضوع مقالة الأب الكرملي تلك، أو موضوع مقالاته الأخرى.

قد يكون من المناسب سوق جوانب أخرى من مسيرة تعريب التعليم العالي في بداياتها، جوانب من تخلص اللغة العلمية العربية مما داخلها من التركية، ومن تعريب بعض المصطلحات دون ترجمتها. فقد دعا أمين المعلوف مجلة المعهد الطبي العربي إلى إصلاح المصطلحات التي وضعت في مدرسة الآستانة ومعظمها منقول عن مؤلفات أساتذة قصر العيني<sup>(١)</sup>. وذكر «من المصطلحات المصرية التي غيرّها الترك لفظة خلية فقالوا الحجيرة... ومنها قولهم النسيج المنضم وصوابه الضام...» وقدم حججه، وأبدى رأيه في ترجمة بعض الألفاظ كالفوسفور والكربون، ورأى تعريبها لضرورة التمييز مثلاً بين أصناف الكربون كالفحم والماس، وبيّن أن اختيار الأترك كلمة فحم العربية للدلالة على الكربون قد يكون مقبولاً عندهم، إذ تبقى مميزة عن كلمة كومور التركية التي تقابل كلمة فحم في لغتنا، واستخلص فيما بعد أن اللغة العربية احتلت

(1) الدكتور أمين معلوف: لغة العلم - مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد ١، الصفحات

فف وفع المصطلحات الفركفة موقع اللغفن الفونائف واللافنفة ومكانفهما فف وفع المصطلحات عنء أهل العرب<sup>(١)</sup>. وائفار آراءه هءه اهمام الءكفور أءمء ءمءف الءفاط فف المعهء الطّفّف العرفف، ومنها ءاصة ما ففعلق بفعرّفب ءلمة ءربون وهفءروجفن وآزوت وما فمائلها، فأعاء المعلوف<sup>(٢)</sup> مبررات فعرففها ءمفعًا فقالف «فلو أمءن فرفمة الهفءروجفن بءلمة عربفة واءءة ونء فلفظة من ءلمفن، ءما قالوا الماورء، لزال الاعفراض، ثم إن البقلف فف معءمه ءرف على فعرفب أمفال هءه اللفة وفعرفها، فقالف الآزوت ومعءم الءفاة، والأفءروجفن ومولد الماء... فبقف الفعرّفب شائفًا إلى فومنا هءا فف مءارس مصر وبفرور وأهمل الفرفمة ءرفًا على سنة بقاء الأصلع...» وما «قولء لو فرفمها (فرء لفظة الآزوت) بمعءم الءفاة، وءرفنا على فرفقفهم (فرفقه الأفرك) فف فسمفة الففراف والنفرف، فهل نقول معءمفة الءفاة، ومعءمفف الءفاة، أو على الفرفقة المصرفة فنقول معءماف الءفاة ومعءمف الءفاة، أفس الأفصل أن نقول ءما فقول الآن مءارس مصر والشام نفراف وآزواف، ونفرف وآزوفف». واقفرف أن فءون الفعرّفب عن الأصل اللافنن فف الفوناف لئلا فقع فف الفوضف. ورفص الءعوة إلى افباع الفرفقة الفركفة فف الفعبفر عن المركباف الءفمائفة. وءان الءافن<sup>(٣)</sup> من قبل فقء فبّه إلى ضرورة إعاءة النظر فف مصطلحات الآسافنة

(١) الفرفق أمين باشا المعلوف: فوفء المصطلحات العلمفة- مءلة المعهء، المءلء الفاسع، الصفءة ٥٢.

(٢) الءكفور أمين معلوف: لغة العلم - مءلة المعهء، المءلء ٢، الصفءاف ٢٢٧-٢٣٣.

(٣) الءكفور مءمء ءمفل الءافن: اللغة العلمفة ((٢)) مءلة المعهء، المءلء ١، الصفءاف ١٨٠-١٨٣.

المنقولة عن العربية، «لأنها وضعت في قالب يناسب اللغة التركية، كقولهم في النسب: زهره وي، ومعهده وي وغدّه وي، وأن صوابها في العربية: زهري ومعدي وغدي، لأن القاعدة عند العرب في النسب إلى ما فيه تاء تأنيث هي حذفها مطلقاً».

ويعود الخاني بعد ست سنوات من بداية الحملة على الدخيل من اللغة التركية فيعلن أن الحملة نجحت في طرد الكلمات المغلوطة التي ورثتها ألسنة الأطباء عن العثمانيين، وأن «كثيراً من تلك الكلمات المغلوطة أخذت تصلح بطبيعتها شيئاً فشيئاً تبعاً لقاعدة زوال السبب بزوال المسبب، لكنه قد بقي منها ما لا يزال متأصلاً في ألسنة بعضنا مؤدياً إلى تحديش الأسماع عند النطق، فرأينا من الواجب أن نعود إلى التنبيه إليها والله الموفق»<sup>(١)</sup>، فَشَكَلَ في مقالته هذه بعض الكلمات التي كانت تلفظ على وجوه مغلوطة كعظم «العَقَب» لمؤخر القدم وصوابه كسر القاف ويجوز السكون، وهي مؤنثة لا مذكرة...» ثم تلاها بذكر فوائده في تفریع الأسماء الثلاثية المجردة وأنهى مقالته ببيان بعض الأسماء الثلاثية المجردة لأعضاء الجسم.

استكمل أساتذة المعهد الطبي العربي وضع مصطلحاتهم والتدقيق فيها، ودخل تعريب العلوم في التعليم العالي مرحلةً جديدة، هي المرحلة الثانية، مرحلة تنقيح المصطلحات العلمية وتكاملها. فظهرت مصطلحات الفيزياء في أعمال الدكتور جميل الخاني، ومصطلحات الكيمياء والصيدلة في أعمال الدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي، ومصطلحات الطب في أعمال الأطباء،

(1) الدكتور جميل الخاني: أبحاث لغوية - مجلة المعهد الطبي العربي، المجلد الثامن

جميل الخاني في أمراض الجلد، ومرشد خاطر في الأمراض الجراحية، وأحمد حمدي الخياط في الجراثيم، وحسني سبوح في الأمراض الباطنة... نشرت تلك المصطلحات في مجلة الجمع، ونوقشت ونقحت على صفحاتها. وقد تدرج هؤلاء الأطباء في تفاعلهم مع الجمع فانتخبوا أعضاء مراسلين ومؤازرين، ثم أعضاء عاملين فيه. ولوّنت أعمالهم ما ينشر في مجلة الجمع بلونها العلمي الأساسي والتطبيقي الخاص، وأوجدت في الجمع البيئة المواتية لنشوء مدرسة لها شخصيتها المميزة في معالجة قضايا المصطلح. وضمت هذه المدرسة الدكتور جميل الخاني الذي وضع مصطلحات الفيزياء وأمراض الجلد وشرع يضع معجمه الذي سماه «الدرّ المتواصف في لغة المترادف»، وصل فيه إلى حرف العين وعاجلته المنون فترك مخطوطاً<sup>(١)</sup>.

وتّم المهندس الزراعي الأمير مصطفى الشهابي، عضو الجمع ورئيسه فيما بعد، بأعماله صورة لشخصية تلك المدرسة، إذ توسع في بحثه، فجمع أسس وضع المصطلح المتوارثة ونسق بينها وبين ما استجد من محاولات، وأضاف إليها، فنشر في عام ١٩٥٥ خلاصة تلك الأعمال في كتابه «المصطلحات العلمية في اللغة العربية في القديم والحديث». كان الشهابي في حصيلة أعماله مهندساً زراعياً، وعالمًا لغويًا عالج مشكلات النحت والاشتقاق والأوزان العربية، والكواسع والصدور، وكتابة الحروف الأعجمية، وقواعد رسم الهمزة، ومعظم ما يمت في اللغة العربية بصلة إلى مشكلات

(١) حركة الإحياء اللغوي في بلاد الشام. الصفحة ١٢٦ - مرجع سابق.

المصطلح العلمي العربي، وأثار بكتابه في المصطلحات العلمية، مسالك وضع المصطلح للأجيال العربية.

وأولى الكواكبي النحت عنايةً خاصة، واقترح في بحوثه وكتبه ومعجماته، الكثير من المصطلحات المنحوتة، مؤيداً رأيه بالعديد مما جمعه من شواهد من التراث العربي. وخص دراسة الأوزان العربية بمجهود مرموق، واقترح القياس على ما قدّم من أوزان في وضع المصطلح. وكثيراً ما حركت مقترحاته تلك قرائح اللغويين، فأثنوا عليه، وطوروا بعض مقترحاته، أو نقدوها وعدلوا فيها وعرضوا ما انتهوا إليه على صفحات مجلة المجمع. وكانت أعمال الكواكبي في مجملها بدايات منهج مدرسة أخرى في وضع المصطلح.

ويبلغ معظم أساتذة المعهد الطبي العربي بفروعه الثلاثة، الطب البشري وطب الأسنان، والصيدلة، منزلة رفيعة في تعريب العلوم ووضع مصطلحاتها، وأدى هذا التطور في وضع مصطلحات العلوم إلى التوجه إلى صنع معجمات مختصة في فروع العلوم التطبيقية في المعهد. وقد بدأت هذه المرحلة، وهي الثالثة من مراحل تعريب التعليم العالي عامة وتعريب تعليم العلوم فيه خاصة، في وقت مبكر نسبياً، ومتداخلة مع المرحلة الثانية عند بعض الرواد، أي في أواخر العشرينيات من القرن الماضي. إلا أن ما يمكن عده معجماً مختصاً لم يظهر إلا في الثلاثينيات منه<sup>(١)</sup>. وكانت المعجمات المختصة الأولى التي نشرت، متدرجة في شمولها جوانب الاختصاص وفي دقة التعريف ووضوح المنهج. فكان منها ما لا يتجاوز محتواه محتوى ما استخدم من المصطلحات في كتاب، لا يتضح في

(1) الدكتور عبد الله واثق شهيد: تطور المصطلح العلمي العربي في مجمع اللغة العربية

بدمشق - مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ٧٧، الصفحة ٤٥٣.

وضعها منهج، ولا تشمل جوانب الاختصاص المتزامية. إلا أن وضع معجم مختص متكامل، أصبح في هذه المرحلة، مطمح الأعضاء المجمعين في كلية الطب بفروعها الثلاثة<sup>(١)</sup>. وعزم ثلاثة من مجعبي الكلية، مرشد خاطر وأحمد حمدي الحياط ومحمد صلاح الدين الكواكبي على صنع معجم للمصطلحات الطبية، واتفقوا على نقل معجم كليرفيل المتعدد اللغات إلى اللغة العربية، ليصبح معجمًا طبيًا شاملاً باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية والألمانية واللاتينية. وقد طبع النص العربي من هذا المعجم في مطبعة الجامعة السورية في سنة ١٩٥٦، وبلغ عدد كلماته ١٤٥٣٤، وعدد صفحاته ٩٦٠ صفحة<sup>(٢)</sup>. ولن نتحدث عن تطور هذا العمل وعلاقته فيما بعد بالمعجم الطبي الموحد، لئلا نخرج عن هدف هذه الدراسة الذي هو وصف التجربة السورية في تعريب التعليم العالي العلمي وتحليلها. ولئن تأخر نشر معجم «مصطلحات تعويض الأسنان» الذي وضعه الجمعي الدكتور ميشيل خوري، فإنه لم يتأخر كثيرًا عن زملائه في الطموح إلى وضع معجم مختص.

إن مرحلة صنع المعجمات المختصة هذه تعد مرحلة نضج تعريب التعليم العالي العلمي، ذلك لأن توافر المصطلحات العربية لمختلف فروع العلوم المراد تعريبها، هو حجر الأساس في تعريب التعليم العالي، وقد بلغ تعريب التعليم العالي العلمي هذه المرحلة في بداية الثلاثينيات كما ذكرنا. وهذا لا

---

(1) تحول معهدا الطب والحقوق وملحقاهما إلى كليتي الطب والحقوق في الجامعة السورية التي أحدثت في ١٥/٦/١٩٢٣.

(2) حسني سبوح: المعجمات الطبية وتوحيد المصطلح الطبي - مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد ٥٩، الصفحتان ٢٣٧-٢٣٨.

يعني أن المصطلحات قد استقرت منذ ذلك الحين، ولكنها توافرت للتعليم كاملةً، وتطورت تدريجيًا، ما بين الثلاثينيات والخمسينيات من القرن الماضي، حسب الحال، إلى أن بلغت مستوى استحقت به إخراجها في معجم. وستوالي تطورها أيضًا، ويعد استمرار تطورها دليل صحة وتقدم.

بلغ تعليم الطب بفروعه الثلاثة مستوى مرموقًا في الثلاثينيات من القرن الماضي، وتابع تطوره وتحسنه. فقد توافرت له جميع المزايا لبلوغ ذلك المستوى، فالتعليم فيه باللغة العربية، وأعضاء هيئة التدريس عرب وقلة من الفرنسيين الجامعيين، والطلاب يتقنون بالضرورة، من اللغات الأجنبية، اللغة الفرنسية على الأقل. والمواد (أو المقررات) التي يدرّسها الفرنسيون قد تكون سريرية وقد تكون محاضرات نظرية، ولكنها تتغير بتغير اختصاص الأستاذ المنتدب للتدريس. وتوفّر هذه المشاركة شهادة عادلة بتقويم جودة التعليم ومستواه مقارنة بما هو مقبول في الجامعات الأوربية. وقد كان خريجو الجامعة السورية موضع ترحيب لاستكمال دراساتهم العليا في الجامعات الفرنسية. وشارك كثير منهم، وهم طلاب، في الكتابة في مجلة المعهد. فكتب فيها صلاح الدين الكواكبي، وكان لا يزال طالبًا في السنة الأخيرة<sup>(١)</sup> من فرع الصيدلة بالمعهد، ونشر فيها شوكة القنواقي وهو طالب طب في الصف الخامس في المعهد، بحثًا بالتعاون مع الأستاذ ترابو<sup>(٢)</sup>...

(١) أحاديث اليوم عن عجائب الراديو: صلاح الدين مسعود الكواكبي، طالب صيدلة

- مجلة المعهد، المجلد الأول، الصفحات ٢٤٦-٢٥٥.

(٢) ترابو وشوكة القنواقي: أنزف أم تلين أم خثرة - مجلة المعهد، المجلد الخامس.

الصفحات ٤٢٤-٤٢٨.

ووجه أعضاء هيئة التدريس في المعهد الطبي العربي بحوثهم الطبية إلى معالجة الأمراض البيئية المستوطنة، وكانت ضافية «في البرداء والزحار والضنك وبثرة حلب وداء الجلبان، الذي كان للمعهد الفضل في اكتشافه، ذلك الداء الذي أقعد عددًا كبيرًا من أهالي قرية التل عن السعي والعمل...»<sup>(١)</sup>، وشارك ترابو والخياط والصباغ في المؤتمر الطبي العربي الأول ببحث عن الزحار العصوي في سورية<sup>(٢)</sup>، ونشروا بحوثهم في مجلة المعهد الطبي العربي و في غيرها من المجلات العلمية المحكمة. فنشر، على سبيل المثال، مرشد خاطر مع الأستاذ ترابو زميله الفرنسي في مجلة الجراحة الفرنسية ومجلة المعهد<sup>(٣)</sup>...

وكان المعهد الطبي العربي يفاخر في أنه المعهد الوحيد في البلاد العربية الذي تدرس فيه العلوم باللغة العربية، وما كان مدير المعهد يفوّت فرصة للمفاخرة بهذه المأثرة. لقد جاء مما قال عن المعهد في إحدى خطبه: «إنه المعهد الوحيد في البلاد العربية الذي تدرس فيه العلوم باللغة العربية، ويتوافد عليه الطلبة من جميع الأقطار العربية المجاورة والبعيدة. فإن لدينا طلبة من بلاد سورية ولبنان والحجاز والعراق ومصر وتونس وغيرها... ولا يحول دون مجيء الكثيرين غير (عدم) اعتراف الحكومتين المصرية والفلسطينية بإجازة هذا المعهد

(1) حفلة توزيع الشهادات - مجلة المعهد، المجلد الثامن، الصفحة ٤٣٨.

(2) ترابو والخياط والصباغ: الزحار العصوي في سورية - مجلة المعهد، المجلد السادس، الصفحات ١٤٦-١٥٤.

(3) ترابو ومرشد خاطر: ضيق الأمعاء بلحم سلية - مجلة المعهد، المجلد التاسع، الصفحة ١٣، وفي حاشيتها إشارة إلى موضع نشرها في مجلة جمعية الجراحة الفرنسية (المجلد ٥٩، الجزء ١٨).

والسماح لحاملها بممارسة مهنتهم (في مصر وفلسطين) كزملائهم من خريجي المعاهد الأخرى... كيف لا والحكومة المصرية كانت تسمح لخريجي هذا المعهد بممارسة مهنتهم في زمن الحكومة التركية ولم يكن معهدنا حينذاك في الدرجة التي نراه فيها الآن»<sup>(١)</sup>. وكما نلاحظ هنا فإن اختلاف النفوذ الأجنبي الذي كان مسيطراً في مصر وفلسطين، وهو البريطاني، عن ذاك الذي كان مسيطراً في سورية ولبنان وتونس، أي الفرنسي، وتضارب مصالح هاتين الدولتين في بلادنا العربية، كان هو السبب في عدم سماح البريطانيين بممارسة خريجي المعهد مهنتهم في مصر وفلسطين. لقد أوقفت بريطانيا التعليم باللغة العربية في الجامعات المصرية وحولته إلى الإنكليزية. أما الفرنسيون، فبعد أن أدركوا أن ليس بإمكانهم زحزحة السوريين عن مطلب تعريب التعليم، الذي أصبحوا أشد تمسكاً به تعبيراً عن رفضهم الانتداب، رأوا في تشجيع الحكومة السورية على متابعة التعليم الجامعي باللغة العربية خدمة مضاعفة لمصالحهم. إنه من جهة، محاولة لتخفيف نفور المثقفين الجامعيين من الوجود الفرنسي في الوطن، وفيه من جهة أخرى محاربة للنفوذ البريطاني في البلاد العربية عامة، وفي المشرق العربي خاصة. إن تعليم مصريين وفلسطينيين الطب باللغة العربية في دمشق وإعادتهم إلى أوطانهم أطباء أقدر - بلغتهم الطبية العربية - على الاتصال بمواطنيهم من زملائهم خريجي المدارس المصرية، وبمستوى علمي منافس، هو سلاح دعائي تتحاشى بريطانيا خطره عليها هناك.

(1) خطاب رئيس المعهد الطبي الأستاذ رضا سعيد بك - مجلة المعهد، المجلد الثالث،

لقد اطمأن الأطباء الجامعيون ومناصرو التعريب في الوطن العربي إلى النجاح الذي حققه تعريب تعليم الطب في المعهد الطبي العربي، والذي يعدّ النجاح فيه المدخل الآمن إلى تعريب تعليم العلوم وتعريب مناسبتها الأخرى كتوليد المعارف العلمية والتقانية ونقلها ونشرها. ودعا المعهد الطبي العربي، منذ بواكير نجاحه، أي منذ عام ١٩٢٤<sup>(١)</sup>، إلى توحيد المصطلحات العلمية العربية، وتنازلت الدعوات<sup>(٢)</sup>، وعقد مؤتمر أول وتلته اقتراحات في سبل توحيد المصطلحات العلمية<sup>(٣)</sup> وكانت الدعوة إلى توحيد المصطلح فقرة هامة في جميع جداول أعمال الجمعيات الطبية العربية، ثم تطورت إلى اقتراح إنشاء مجمع مصري سوري عراقي لتأليف معجم طبي<sup>(٤)</sup>. ولا تزال تتردد أصداً هذه الدعوات، وتتجدد صيغها، فتقام المؤتمرات والندوات، وتقر مبادئ وأساليب لتوحيد المصطلح وإشاعته، وتنشأ هيئات من أهم أغراضها تحقيق هذا الهدف، كاتحاد مجامع اللغة العربية، واتحاد الأطباء العرب (المعجم الطبي الموحد)... ومكتب تنسيق التعريب الذي أنشئ خصيصاً لتحقيق توحيد المصطلح. وقد أنجزت فعلاً مراحل هامة لبلوغ الغاية التي كانت التجربة السورية فيها

(1) الأستاذ عبد القادر سري: كتب جديدة - مجلة المعهد، المجلد الأول، الصفحة ٢٤٤.

(2) ١- الفريق الدكتور أمين باشا المعلوف: توحيد المصطلحات العلمية - مجلة المعهد،

المجلد التاسع، الصفحات ٥١-٥٩ و ١١٧-١٢٤ و ١٧٧-١٨١.

٢- الدكتور الأستاذ جميل الخاني: مصطلحات علمية - مجلة المعهد، المجلد

التاسع، الصفحة ٢٣٧.

(3) المرجع السابق (الفريق المعلوف) الصفحة ١٢٣ والصفحتان ١٨١-١٨٢.

(4) مجلة المعهد الطبي العربي المجلد الثاني عشر، الصفحة ٥٨٢.

هي المرحلة الأولى، وكانت في عزم روادها الأوائل ومنهجهم العلمي الذي اتبعوه تجربة رائدة، وطدت بنجاحها تعريب التعليم في جميع مراحل وأنواعه، بل تعريب المناشط العلمية كلها من التعليم إلى نشر المعارف مرورًا بالبحث العلمي والتطوير التقاني.

للبحث صلة